المكيّون في مصر

دور عرب الجزيرة في مقاومة الحملة الفرنسية



أ . شفيق شوكت العمروسي

رغم الاهتمام البالغ بحملة نابليون بونابرت على مصر والشام (١٧٩٨ - ١٨٠١) إلا انه مازال هناك من الجوانب المتعددة ، لأحداث تلك الفترة مالم يكشف حتى الآن

ومن هذه الجوانب ذلك الدور الذي لعبه عرب الجزيره العربيه او اشراف مكه - كما اطلق عليهم قادة الحملة - في مقاومة الغزو الفرنسي .

والبحث عن الدور الذي لعبه عرب الجزيرة يعودنا الى طرح سؤال عن دور الدولة العثمانيه و خطط المقاومة ضد الغازي . ولذلك فان مانطرحه هنا ليس سوى دعوة للبحث والدراسة لعلها تكشف لنا ما اهمله أكثر كتب التاريخ إن عمدا أو سهوا .

من الصفحات التي نكاد أن نكون مجهولة في تاريخنا الحديث . ذلك الدور الذي قام به عرب الجزيرة العربية للمشاركة في مواجهة الحملة الفرنسية على مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر .

وهي صفحات لاشك سوف تجعلنا نعيد النظر في نتائج كثيرة سابقة . استقرت في الأذهان . وكادت أن تصبح بمثابة بديهات . وبخاصة إذا وجدنا أن البحث من خلال تلك الصفحات المجهولة قد يساعدنا في الكشف عن دور الدولة العثمانية في تنظيم حركة المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي طوال ثلاث سنوات (١٧٩٧ ـ ١٨٠١) .

ولعل نابليون كان يدرك رغم كل الأحلام التي كانت تداعبه أي مقاومة يمكن أن يلقاها في هذا الشرق الإسلامي : ولهذا استقر تفكيره على اتخاذ الخديعة وسيلة لتحقيق طموحاته . وبالتالي طموحات الغرب . ولذلك كتب « علينا أن نهدهد التعصب قبل أن نستطيع اقتلاعه »[١]

وعلى هذا فبمجرد نزول جنود الحملة الفرنسية إلى الأراضي المصرية غرب الإسكندرية ليلة ٢ يوليو عام ١٧٩٨ م (١٨ محرم عام ١٢١٣) هـ . وزع نابليون بونابرت منشوره الأول . والذي حاول فيه أن يستغل الدين للتقرب والتودد إلى المسلمين في مصر كخطوة لتحقيق آماله الاستعمارية . ولهذا كانت دعوته للقوى المؤثرة في المجتمع المصري وقتذاك « أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية (العمد) وأعيان البلد . قولوا لأمتكم : إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون » ![٢] بل حاول أن يسرب الوهم عن صداقته للدولة العثمانية « ... الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه . أدام الله ملكه »[٣]

وأيضا لم يتوقف الأمر على توجيه الخطاب إلى المصريين . بل حاول نابليون أن يمد خداعه إلى بقية الولايات العربية المحيطة بمصر والتابعة للدولة العثمانية . ويذكر الجبرتي في تاريخه (ربيع الثاني ١٢١٣ هـ ـ سبتمبر ١٧٩٨ م) أن الفرنسيين كتبوا « كتابا لبرسلوه إلى السلطات . وآخر إلى شريف مكة . ثم إنهم بصموا منه عدة نسخ ورموها بالطرق والأزقة . .... وذكر فيه أنه (أي نابليون) من أخصاء السلطان وأعدى أعدائه . وإن السكة والخطبة باسمه وشعائر الإسلام مقامة على ماهي عليه . وباقي الكلام المموه الذي ذكروه بمعنى الكلام السابق من كذبهم وقولهم أنهم مسلمون ويحترمون النبي والقرآن .... » .[٤]

كان الجبرتي قد سخر ـ كما هو واضح ـ من أسلوبه . ومن محاولة التقرب من المسلمين وادعاء صداقته للباب العالي . واحترام جنوده للنبي ﷺ والقرآن . فإن نفس ذلك الوقف الساخر . كان ولابد أن يشمل كل من وصلتهم رسالة « كبير الفرنسيس » . إذ لم يصل أي ردود لنابليون من

الجزار أو والى طرابلس . أو والى دمشق . » ولم يرد عليه مطمئنا سوى شريف مكة . الذى كان يعتمد فى دخله على قوافل الحج القادمة من القاهرة . وعلى صادرات البن إلى مصر . ولكن حتى عبارات شريف مكة المطمئنة . تبين أنها تنطوى على الخديعة . ولابد أن دعاوى صداقته (أى نابليون) للسلطان والإسلام بدت لهؤلاء الحكام جميعا ضربا من الصفاقة يقرب من الجنون . لاسيما وأنها وصلتهم بعد أيام . بل أسابيع . من وصول سعاة التتار يحملون إليهم نبأ إعلان الحرب على الفرنسيين » .(٥)

• موقف الدولة العثمانية •

فى يوم الأحد ٩ سبتمبر ١٧٩٨ م (٣٠ ربيع أول ١٢١٣ هـ) استدعى الريس افندى السفير الأسبانى حيث قام بتسليمه البيان الذى أعلن الباب العالى بمقتضاه رسميا الحرب على فرنسا .(٦)

وبالطبع لم يتوقف الأمر على مجرد إعلان الحرب . إذ كان على الباب العالى مهمة أخرى تقتضى منه أن يشرع فى تنظيم المقاومة داخل مصر بالتعاون مع بقية الولايات العربية .

وفى هذا الصدد نجد أنه قد نجح فى إبلاغ بيانه فى أقل من شهر - فى وقت تميز بصعوبة المواصلات بالإضافة إلى ظروف الاحتلال - لكل أنحاء القطر المصرى . إذ يذكر هيرولد « ولم **يبدأ أكتوبر ١٧٩٨ م (ربيع ثانى ١٢١٣ هـ)** حتى عرف كل مصرى لم يصب بالعته أن السلطان صديق فرنسا وحليفها العزيز قد أعلن عليها الحرب ! » وذلك » بعد أن قرأه (**أى فرمان إعلان الحرب**) كل إمام ومؤذن فى كل جامع من جوامع مصر » .(٧)

ولاشك أيضا أن الباب العالى استطاع الاتصال بالمماليك وبعض المصريين . ويمكن أن نستدل على ذلك بما كان يورده الجبرتى من أخبار إعدام بعض الأفراد لضبطهم يحملون مكاتبات . أو لاتهامهم بالاتصال بالعثمانيين أو بالمماليك . بل إن جرجى زيدان يذكر صراحة واقعة ضبط منشورات عثمانية مرسلة الى مصر فى **أواخر جمادى الأول ١٢١٣ هـ** .(٨)

وفى نفس الوقت نشط الباب العالى فى إرسال الخطابات إلى شريف مكة وإمام اليمن وبقية الولايات يطالبها بضرورة التعاون لمواجهة الغزو الفرنسى .

• الاتجاه جنوبا •

بعد موقعة الأهرام ٧ صفر ١٢١٣ هـ (٢١ يوليو ١٧٩٨ م) ودخول الجيش الفرنسى إلى

القاهرة ، فر مراد بك[٩] إلى الصعيد . ولم يكن نابليون يأمن له فحاول مرضاته بأن يتنازل له عن مديرية جرجا ومابتلوها جنوبا ، إلا أن مراد رفض العرض . وبالتالى لم يكن أمام نابليون إلا مطاردته . وبالفعل جهز حملة بقيادة دبزيه لمطاردته . وبدأت تلك الحملة مسيرتها ليلة ٢٦ أغسطس ١٧٩٨ م (١٤ ربيع أول ١٢١٣ هـ) من الجيزة وقوامها ٢,٨٦١ من المشاة ومدفعان . وهى الحملة التى قدر لها أن تستمر « تسعة أشهر . واضطر دبزيه وفرقته إلى الزحف والتقهقر مسافات لا يقل جملتها عن ٣,٠٠٠ ميل »[١٠] ، وهى أيضا الحملة التى قدر لها أن تشاهد أعنف العمليات الحربية فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، وتواجه بأخلاط من المصريين وعرب الجزيرة العربية .

• الاستنجاد بأشراف مكة •

قبل تحرك حملة دبزيه كانت أخبار « مجىء الفرنسيس » قد سبقته ، مما أشعل روح المقاومة فى صعيد مصر . وبالطبع سهل ذلك على مراد بك أن « يضم إليه الأعوان والأنصار من أهل البلاد »[١١] . ثم أرسل ـ كما يذكر الرافعى ـ « يستنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجدة ، وأنفذ رسله إلى النوبة يستنفرون الناس لمقاومة الفرنسيين »[١٢] . ويؤكد هيرولد ذلك : حيث يذكر « وكان مراد فى هذه الأثناء يكتب لشتى زعماء القبائل فى شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر . ويشرع فى تنظيم الصعيد »[١٣] . كما ذكر أيضا أن مراد « قد كتب لشريف ينبع وشريف جدة ـ على ساحل الحجاز المطل على البحر الأحمر ـ يطلب إليهما جلب المحاربين ليعاونوه فى جهاده مع الكفار »[١٤] .

ومن المرجح أن تلك الاتصالات قد تمت فى إطار عام ، يشمل تنظيم الدولة العثمانية لمقاومة الغزو الفرنسى : فالمعروف أن اتصالات مراد بك لم تتوقف لفترة طويلة ، كما أنه لم يكن لحكام الحجاز أن يقدموا المساعدة لمراد بك دون موافقة من الباب العالى . والمهم هنا أن الدعوة للجهاد وصلت إلى الجزيرة العربية . فماذا كان رد الفعل ؟

• الدعوة إلى الجهاد •

يقدم لنا الجبرتى صورة لما حدث فى الجزيرة العربية حين وصلت أنباء الغزو الفرنسى لمصر فى أخبار شعبان عام ١٢١٣ هـ (يناير ١٧٩٩ م) فيقول : « ... ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب (ديسمبر ١٧٩٨) بأن رجلا مغربيا عالما يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف . فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم وصلوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة . وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم

على نصرة الحق والدين . وقرأ بالحرم كتابا فى معنى ذلك مؤلفا . فاتعظ جملة من الناس . وبذلوا أموالهم وأنفسهم . واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع . فورد الخبر فى أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أشراك ومغاربه ... »[١٥]

تلك الشهادة التى يقدمها لنا الجبرتى تستحق أن نتوقف عندها قليلا : إذ من الواضح أنه كعادته فى نقل الأخبار والحوادث التى وقعت بعيدا عن القاهرة لم يتحر الدقة : فقد جعل الشيخ الكيلانى مجاورا فى ثلاث مدن فى وقت واحد . كما أنه نسبه إلى المغرب . ثم تحدث عن (ستمائة من المجاهدين) وهذا العدد لايتفق مع طبيعة المعارك التى شارك فيها أهالى الحجاز على نحو ما . وكل مانستطيع أن نفيده من رواية الجبرتى هو أنه قد خرج من يدعو إلى الجهاد فى بلاد الحجاز . وإن تلك الدعوة لاقت النجاح . حيث انتظم العديد من المجاهدين وراء الداعى . وعبروا البحر الأحمر ليشاركوا فى المقاومة ضد الفرنسيين . أما عن حقيقة الشيخ الذى قاد الدعوة للجهاد وعدد المتطوعين وخط سيرهم والمعارك التى شاركوا فيها . فذلك كله يستدعى أن نبحث عنه فى مصادر أخرى .

• الجيلانى قائد جيش الحجاز •

من الشهادة السابقة للجبرتى : يتضح لنا أن الشيخ الكيلانى هو الذى قاد الدعوة للجهاد . ومن ثم هو أيضا الذى قاد ذلك الجمع من المجاهدين الذين التفوا حوله . وفى أماكن أخرى من تاريخه يسميه الجيلانى . وفى نفس الوقت يذكر أنه من أهالى المغرب . وقد أدى ذلك إلى دفع أحد الباحثين إلى خطأ اعتبار الكيلانى - الذى ذكره الجبرتى - هو محمد المهدى - من مدينة درنة بطرابلس الغرب - الذى قاد المقاومة ضد الفرنسيين فى محافظة البحيرة .[١٦] وقد استند الباحث فى استنتاجه إلى أن الكيلانى أو الجيلانى من الألقاب الشائعة فى بلاد المغرب[١٧] . وهذا الخلط تدحضه الوقائع التاريخية : إذ فى الوقت الذى كان المهدى يحارب الفرنسيين فى البحيرة . كان الجيلانى يحاربهم فى الصعيد . وأيضا يمكننا أن نستدل على هذا الخلط من خلال الأسباب التى نشرها الجبرتى - نقلا عن المنشور الفرنسى - تبريرا لعودة نابليون من حملة الشام . إذ كان من بين تلك الأسباب « ... السادس : بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلانى لناحية الصعيد . السابع : المغربى محمد الذى صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب » .[١٨]

وعلى هذا يبدو واضحا أن الجيلانى القادم من الجزيرة العربية هو غير محمد المهدى القادم من المغرب .

ولكن الأمر لاينوقف عند هذا الحد : إذ سرعان ماسوف يقابلنا مشكلة جديدة : فالرافعي ـ اعتمادا على الوثائق الفرنسية ـ يسمي قائد جيش الحجاز الشريف حسن . وهو اسم لم يتعرض له الجبرتي مطلقا . وبالتالى نحن هنا أمام أكثر من قائد واحد . فما هي حقيقة الأمر ؟

هناك مخطوط اكتشف مؤخرا للمؤرخ اليمنى لطف الله جحاف[١٩] نجد فيه إجابة مقنعة تفتح لنا الباب لكشف العديد من غوامض هذه المرحلة . ففى أخبار عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) يذكر لنا أن المتطوعين بقيادة محمد الجيلانى قد نزلوا إلى « ينبع » ، وجاء الخبر بأن المتطوعة من ديار مكة قد مرت مراكبهم ، فحمد الله . وسار بمن معه . وكان السابقون من مكة قد خرجوا من ريف مصر وعليهم السيد حسن الجيلانى ابن اخت السيد محمد . والسيد طاهر أخو السيد محمد . .. »[٢٠] .

ويتضح لنا من ذلك أن انتقال عرب الجزيرة إلى مصر قد تم على مراحل ، وأن السيد حسن الجيلانى كان قد سبق ابن أخته محمد الجيلانى فى الوصول إلى مصر . وهذا يتفق مع ماجاء فى كتاب هيرولد من أن جواسيس القائد الفرنسي بليار قد أخبروه « أن **٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ آخرين من المكيين نزلوا فى القصير** »[٢١] ويفند ماذكره الجبرتى مما يوحى بقدومهم دفعة واحدة .

إذا نحن أمام ثلاثة رجال يحمل كل منهم اسم الجيلانى ، محمد وحسن وطاهر ، ونربط بينهم ـ كما اتضح ـ نسبه قرابة . لكن يبقى مشكلة أخرى ، هل ينتسبون إلى المغرب أم إلى الجزيرة العربية ؟ .

عند لطف الله جحاف ، يذكر لنا اسم محمد الجيلانى كاملا على هذا النحو « **محمد المغربى الجيلانى الهاشمى** » ، وبالطبع فإن ذكر لقب الهاشمى يقطع بأنه من أهالى الجزيره العربية ؛ إذ المعروف إن بنى هاشم بطن قرشى . كما يؤكد هذا خلع صفة الشريف عليه هو وإبن أخته . ثم أنه ليس من المعقول أن يتطوع الآلاف من أبناء الجزيرة العربية . وكما يذكر هيرولد أنهم كانوا « يزعمون أنهم كلهم من سلالة الرسول »[٢٢] بينما يبدو قيادهم مجاور مغربى . ونعتقد أن مادفع الجبرتى إلى هذا الاعتقاد الخاطئ (**نسبة الجيلانى إلى المغرب**) هو اسم المغربى الذى يحمله . بالإضافة إلى وجود عدد كبير من المتطوعين المغاربة فى الجيش الحجازى .

• المجاهدون : كم بلغ عددهم ؟ •

بقى بعد ذلك مسألة أخرى خاصة بعدد هؤلاء المجاهدين الذين التفوا حول الدعاة وخرجوا للدفاع عن ديار الإسلام . وفى هذا الشأن نحن لانجد لدينا أى إحصاءات واضحة . وكل مايمكننا . هو محاولة تقدير عددهم طبقا لما بين يدينا من بيانات وتقديرات . وينبغى أولا أن نستبعد ذلك العدد الذى ذكره الجبرتى وحدده (**بستمائة من المجاهدين**) إذ لايتفق هذا الرقم مع أى من

المقدرات الفرنسية . ولايتفق أيضا مع الدور البطولي الذي قام به عرب الجزيرة في خوض المعارك بجانب الأهالي من المصريين .

وعموما فقد براوحت التقديرات التي ذكرها هيرولد ونابليون والرافعي مابين ألفين وثلاثة آلاف . وإذا وضعنا في الاعتبار مدى الخسائر التي منى بها العرب والأهالي ـ نتيجه لتفوق الجيش الفرنسي في التنظيم والعتاد ـ ثم أخذنا بما علمه بليار من وصول قوة قوامها من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ من أهالي الجزيرة العربية على اعتبار أنه عدد مبالغ فيه . **فمن الممكن أن نتفق مع لطف الله جحاف في أن عدد المتطوعين الذين خرجوا من جدة . وصل إلى أربعة آلاف مجاهد**[٢٣] . ونعتقد ـ كما اتضح مما سبق ـ أن هذا الكم الهائل لم يصل إلى مصر دفعة واحدة : بل ظل هناك سيل من المطوعين ينهمر عن طريق ميناء القصير لفترة طويلة . حتى أن ديزيه كان يرى ضرورة احتلال ذلك الميناء لتأمين الوجه القبلي : ولذلك يؤكد هيرولد على أنه باحتلال القصير « يوقف امداد مراد من المكيين . وساد الهدوء نسبيا ومؤقتا أرض الصعيد »[٢٤] .

• رحلة الجهاد •

وبما سبق ـ وبالإضافة إلى ما أورده لطف الله جحاف يمكن أن نستخلص صورة تقريبية لصورة الأحداث الخاصة بتطوع أهالي الجزيرة العربية للجهاد بجانب الأهالي في مصر . فبمجرد وصول أنباء الغزو وإعلان الباب العالي الحرب على فرنسا . بدأت الدعوة للجهاد . وطبقا لرواية الجبرتي : فقد وصلت الأخبار بتلك الدعوة إلى مصر في أوائل شهر رجب ١٢١٣ هـ (ديسمبر ١٧٩٨ م) . أي بعد حوالي أكثر من ثلاثة شهور لإعلان الباب العالي الحرب على فرنسا . فإذا وضعنا في اعتبارنا صعوبة المواصلات في ذلك الوقت . أمكن القول . بأن الدعوة للجهاد والاستعداد له بما يلزم من إعداد عسكري وجمع للتبرعات . **قد استمرت طوال شهري جمادى الأولى والآخرة سنة ١٢١٣ هـ (اكتوبر ونوفمبر ١٧٩٨ م)** .

وعلى هذا فقد خرج للدعوة إلى الجهاد السيد محمد المغربي الجيلاني الهاشمي . وساعده في دعوته « السيد حسن الجيلاني ابن أخته . والسيد طاهر أخو السيد محمد »[٢٥] وحينما تجمع حولهم بعض من المجاهدين قادهم السيد طاهر ومعه السيد حسن إلى مصر (ومن هنا جاء ذكر الشريف حسن قائدا لعرب الحجاز في بعض المصادر) بينما بقي السيد محمد الجيلاني مستمرا في دعوته بمكة . وواضح من رواية لطف الله جحاف أن تلك الدعوة لاقت كل نجاح . إذ يذكر لنا أن « محمد باصلاح الحضرمي . تصدق في سبيل الله بخمسمائة بندق صغار مغربيه ومائتي حربة من حراب الشام . ومائتي سيف . وأربعمائة كيس من حبوب الرز وألفي نعل يتنعلها فقراء المجاهدين . ومنهم

الشيخ عبد الرحمن العسيرى بهبات جهز بها ثلاث سواع (سفن صغيرة) يركبها المجاهدون وملأها لهم ميرة . ومنهم الشيخ أحمد فاس جهز دواوين فى سبيل الله . ومنهم الشريف غالب بن مساعد . جهز خمس سواع فى سبيل الله » .[٢٦]

وقد استطاع محمد الجيلانى بعد أن توافر لديه وفرة من المتطوعين أن « يسير جماعة متطوعة من جدة »[٢٧] يقدرها لطف الله جحاف بحوالى أربعة آلاف مقاتل . ونعتقد أنه رقم مبالغ فيه ؛ إذ يذكر لنا نفس المؤلف أنه خرج من المدينة بعد ذلك « ثلاثمائة » . وبالطبع لاوجه للمقارنة بين التقديرين إذ يستحيل أن يخرج من مكة وجدة أربعة آلاف مجاهد ومن المدينة ثلاثمائة فقط .

المهم هنا أن السيد محمد الجيلانى بعد أن قام بتسفير هؤلاء استمر فى دعوته : حيث قطع الطريق السلطانى بين مكة والمدينة[٢٨] . فمر بأهل رابغ والخليص « فدعاهم فأجابوا وبذلوا أموالا واسعة . وسار إلى بدر فأنالوه وخرج منهم جماعة متطوعة . وكان له وكلاء يجمعون الأموال معه . ثم نزل بالصفرا (ناحية فى المدينة) فدرس بها ودعا إلى الجهاد فجاءوه بأموال واسعة . وسار إلى المدينة فتسلم من أهلها أموالا جزيلة ... الخ »[٢٩] . وبهذا الجيش الذى جمعه السيد محمد الجيلانى الهاشمى عبر البحر الأحمر فى مراكب مختلفة الأحجام حاملة الآلاف من الرجال المسلمين بشتى أنواع الأسلحة البسيطة .

إذاً الدفعات التى عبرت البحر الأحمر من عرب الجزيرة خرجت من جده وينبع . ولكن محطه الوصول كانت واحدة . هى ميناء القصير على السواحل المصرية . ولم يكن الرسوّ على هذا الميناء يعنى نهاية صعاب تلك الرحلة الطويلة ؛ إذ كان على هؤلاء المجاهدين أن يقطعوا ذلك الطريق الصعب بين القصير وقوص والذى يمتد حوالى ١٦٠ كيلومترا . وكانت أسرع القوافل تقطعه فى ذلك الوقت فى مدة لاتقل عن خمسة عشر يوما .[٣٠]

• دور عرب الجزيرة فى المعارك الحربية •

وبوصول الدفعات المتتالية من عرب الحجاز إلى صعيد مصر كان على الجنس الفرنسى أن يبدأ مرحلة جديدة من حروبه . اعترف قادته بمدى صعوبتها وشراستها . ويعترف هيرولد بأنه : كان أرهب إمداد مراد هم المقاتلون العرب القادمون من الحجاز . الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف »[٣١] .

من الناحية العسكرية نجد أن المعارك التى شاركوا فيها كانت أكثرها شراسه . ومن الرافعى نفهم أن أول المعارك التى شاركوا فيها كانت معركة سمهود[٣٢] (٢٢ يناير ١٧٩٩ م) ١٥ شعبان ١٢١٣ هـ . حيث يذكر أنه « كان مع مراد من المماليك ١٥٠٠ مملوك والباقون من الأهالى الذين

انضموا إليه من جميع البلاد . وبقدرهم نابليون بسبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة وألفين من عرب ينبع وجده بقيادة الشريف حسن ».[٢٣] ثم شاركوا في معركة قنا (١٢ فبراير ١٧٩٩ م) ٧ رمضان ١٢١٣ هـ . وبعدها « استطاع الشريف حسن الذي كان يقود عرب الحجاز أن يلم شعبه وانضم إليه الأهالي المسلمون من سكان البر الشرقي للنيل . فرابطوا بالعرب من أبو مناع »[٢٤] : حيث اشتبكوا في معركة أخرى مع الفرنسيين (١٧ فبراير ١٧٩٩ م) ١٢ رمضان ١٢١٣ هـ . وفي قفط حدث اشتباك بين الفرنسيين والمسلمين « وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الأهالي وعرب الحجاز و٣٥٠ ـ ٤٠٠ من المماليك »[٢٥]

أما أشهر المعارك التي شارك فيها عرب الحجاز . ويبدو أنهم قاموا بها بمفردهم ـ فهي موقعة بارود البحرية . وهي المعركة التي « قاد فيها الشريف حسن نحو ألفين من مشاة المكيين » ثم استطاعوا أن يستولوا على بعض الصنادل الصغيرة . وبدأوا يرمون ظهر إيطاليا (وهي أضخم قطع الأسطول وأحصنها) .... وصعدوا إلى ظهرها بالمئات »[٢٦] حيث دارت أعنف معركة استطاع خلالها عرب مكة أن يبيدوا تقريبا القوات الفرنسية . بل وقاموا بالاستيلاء على بعض المدافع التي استخدموها فيا بعد . في معركة أبنود التي استمرت ثلاثة أيام (٨ ـ ٩ مارس ١٧٩٩م) ١ ـ ٣ شوال ١٢١٣ هـ . حيث فتكوا بالفرنسيين « فتكا شديدا »[٢٧] .

ورغم أن النصر كان حليف الفرنسيين في نهاية الأمر . إلا أنه يجب علينا ألا نغفل أن القوات المشتركة من عرب الجزيرة وأهالي مصر والمماليك كان ينقصها التنظيم والتدريب والسلاح المتقدم والمتطور على عكس ما كان عليه الجيش الفرنسي . ورغم ذلك فإن استغاثة ديزيه إلى نابليون « إن علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب القادمون من القصير . والمماليك . والأهالي »[٢٨] يعطينا أكثر من مؤشر لبطولة القوات التي خرجت مدافعة عن بلاد الاسلام . وهو الأمر الذي اضطر الفرنسيين إلى احتلال القصير ـ كما رأينا ـ في ٢٩ مايو ١٧٩٩ (٢٤ ذي الحجة ١٢١٣) لمنع وصول أي امدادات من الجزيرة العربية .

• الأثر المعنوي لأشراف مكة •

وبعيدا عن الناحية العسكرية . فلا خلاف في أن وصول تلك الامدادات من عرب الجزيرة . والدور البطولي الذي قاموا به للدفاع عن الدولة الإسلامية قد أثر تأثيرا كبيرا في رفع الروح المعنوية للشعب المصري . وسبب ارتباكا كبيرا للقيادة الفرنسية .

فمن ناحية يذكر الجبرتي في أخبار ٢٧ ذي القعدة عام ١٢١٣ (٢ مايو ١٧٩٨) أنه « لخص الفرنسيس طومارا (منشورا) قرئ بالديوان وطبع منه عدة نسخ ولصقت بالأسواق على العادة .

وكان الناس أكثروا من اللغط بسبب انقطاع الأخبار عن الفرنسيس المحاصرين لعكا والروايات عمن بالصعيد والكيلانى والأشراف الذين معه ... »[٣٩] . وفى نفس المنشور : ... فإن حضرة صارى عسكر (دوجا) الوكيل بلغه أن أهل مصر وأهل الأرياف يتكلمون بكلام لا أصل له من قبل الأشراف . والحال أن الأشراف الذين ذكروهم ويكذبون عليهم . جاءت أخبارهم من حضرة صارى عسكر الصعيد .... بأن الأشراف المذكورين الذين صحبة الكيلانى تمزقوا كل ممزق . وانهزموا وفرقوا ولم يكن الآن فى بلاد الصعيد شىء يخالف المراد »[٤٠] .

وواضح من كلام المنشور أنهم أرادوا بهذه الشعور العام والقضاء على الحماس الدينى الذى لاشك كان قد ازدادت حدته فى مواجهه الجيش الفرنسى بعدما شعر الشعب المصرى أن الأشراف قد شاركوه فى مقاومته للغازى . وبعدما انتشرت الروايات عن بطولاتهم فى معارك الصعيد . تلك البطولات التى جعلت هيرولد يقول : « وكأن هؤلاء الرجال من سلالة أسلافهم . الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرنا . وقد جاءوا فى عام ١٧٩٨ م ليقاتلوا الفرنسيس الكفرة بنفس الايمان » .[٤١] أما عن قول المنشور بأنهم (**تمزقوا كل ممزق**) فلم يكن إلا على سبيل الوهم : إذ سرعان ما نجد الجبرتى يذكر مشاركة « جماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلانى » فى أحداث ثورة القاهرة الثانية .

ومن ناحية أخرى فقد سبب حضور هؤلاء الأشراف ارتباكا للسلطات الفرنسية . إذ يقول الجبرتى فى أخبار **١٧ شوال عام ١٢١٣ (٢٤ مارس ١٧٩٩)** أن الفرنسيين « رتبوا أوامر وكتبوها فى أوراق مطبوعة وألصقوها بالأسواق . إحداها بسبب مرض الطاعون . وأخرى بسبب الضيوف الأغراب » .[٤٢] فقد نبهوا على أنه « ينحتم ويلزم صاحب كل خمارة أو وكالة أو بيت يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو إقليم أن يعرّف عنه حالا حاكم البلد ولايتأخر عن الأخبار إلا مدة اربعة وعشرين ساعة ... »[٤٣] .

وبالطبع لم يكن هذا الاجراء ضروريا إلا فى حالة الخوف من وصول عرب الجزيرة أو رجال من قبل الباب العالى . وهذا مادفعهم فى نفس الفترة إلى إعطاء بطاقة خاصه للمماليك والأغراب . تسمح لهم بالإقامة فى القاهرة . وتوقيع عقوبة على من لايمتلكها . والجبرتى يعلل ذلك لانتشار « إشاعة دخول الكثير منهم إلى مصر خفية بصفة الفلاحين »[٤٤] ويمكن أن نضيف عرب الجزيرة إلى هؤلاء الذين خشيت القيادة الفرنسية دخولهم إلى القاهرة . وهم كما وصفهم هيرولد « أكثرهم وأشدهم تعصبا » .[٤٥]

وعلى هذا ، فاننا حين نضع هذا الدور البطولى لعرب الجزيرة العربية ، أو لأشراف مكة كما أطلق عليهم ، فى داخل الإطار العام لحركة المقاومة التى شارك فيها أهالى مصر والمغرب والشام ، فسوف نجد أنفسنا فى حاجة إلى البحث عن دور العثمانية فى تنظيم تلك المقاومة .

ولعلها لم نكن مصادفة ماذكره الجبرتي عن سفر هجان « الى الحجاز ومعه فرمان بخبر الفتح والنصر وارتحال الفرنساوية من أرض مصر ودخول العثمانية »[16] وذلك عقب جلاء الجيش الفرنسي .... وإذا كنا لانعرف فحوى تلك الرسالة ، إلا أنه مما لاشك فيه أنها كانت تعني الأمر بوقف محاولات إرسال مزيد من المتطوعين .

هذه صفحة مشرقة من تاريخ نضالنا العربي والإسلامي ، جديرة بالتأمل والدراسة .

※ ※ ※

● الهوامش ●

(١) هيرولد ، بونابرت في مصر ، ص ٢٥١ . (ونعتقد أن تلك العبارة تستحق أن نتوقف عندها كثيرا . إذ مازال ماتحمله من معنى تمثل جانبا كبيرا من طبيعة العلاقة التي تحكم علاقة الغرب بالشرق) .

(٢) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ص ٥ ـ مظهر التقديس ، ص ٣٠ (يلاحظ أن الجبرتي قد تناول في مظهر التقديس ذلك المنشور بالنقد والسخرية) .

(٣) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ص ٥ ـ مظهر التقديس ، ص ٣٠

(٤) الجبرتي ، عجائب الآثار ص ٢١ ـ مظهر التقديس ، ص ٧٠

(٥) هيرولد ، بونابرت في مصر ، ص ٢٠٢

(٦) الريس أفندي لقب يطلق على وزير الخارجية في الدولة العثمانية . وقد تم تسليم إعلان الحرب للسفير الأساسي نظرا لقرار التحفظ على السفير الفرنسي تبعا للقاعدة المتبعة في ذلك الوقت في حالة انفصام العلاقات الدبلوماسية (راجع : هيرولد ، بونابرت في مصر ، ص ص ١٨٣ ـ ١٨٥

(٧) هيرولد ، بونابرت في مصر ، ص ٢٠٣

(٨) جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ص ١٨٣

(٩) حكم مراد بك مصر بالاشتراك مع إبراهيم بك أكثر من عشرين سنة . ولعب مراد دورا في مواجهة الحملة الفرنسية . ثم انتهى الأمر بالتهادن معهم .

(١٠) هيرولد ، بونابرت في مصر ، ص ٣٠٨

(١١) ، (١٢) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ص . ص ٣١٩ ـ ٣٢٠

(١٣) هيرولد ، بونابرت في مصر ص ٣٢٣ .

(١٤) هيرولد ، بونابرت في مصر ص ٣٢٣

(١٥) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ص ٤٤ ـ مظهر التقديس ص ١١٢ ـ ١١٣

(١٦) ، (١٧) محمود الشرقاوي ، مصر في القرن الثامن عشر ، ص ١٢٤

(١٨) الجبرتي ، عجائب الآثار ص ٦٨ .

(١٩) لطف الله جحاف ، « درر نحور العين في سيرة الأمام المنصور على واعلامه الميامين » وهو مخطوط اكتشفه مؤخرا في اليمن د . مصطفى سالم .

(نقلا عن مصطفى نبيل ، مجلة الهلال) .

(٢٠) **مصطفى نبيل** . مجلة الهلال . ص ٤٣ .

(٢١) **هيرولد** . بونابرت في مصر . ص ٣٤٩ .

(٢٢) **هيرولد** . بونابرت في مصر ص ٣٣٤ .

(٢٣) إلا أننا نختلف مع لطف الله جحاف بشأن خروج هذا العدد دفعة واحدة . إذ كما سوف نرى يبدو واضحا وصول ذلك العدد من المجاهدين على دفعات متتالية .

(٢٤) **هيرول** . بونابرت في مصر . ص ٣٥٨ .

(٢٥) **مصطفى نبيل** . مجلة الهلال .

(٢٦) المرجع السابق .

(٢٧) المرجع السابق .

(٢٨) نرجح اتخاذ الكيلاني للطريق السلطاني بين مكة والمدينة طبقا لما ذكره جحاف من مروره برابغ والخليص . حيث أن طرق القوافل الأخرى (الطريق الفرعي والطريق الغاير) لا تمران بهما (راجع (الرحلة الحجازية) ص ٣٦) .

(٢٩) **مصطفى نبيل** . مجلة الهلال .

(٣٠) **محمد لبيب البتنوني** . الرحلة الحجازية . ص ٢٨ .

(٣١) **هيرولد** . بونابرت في مصر . ص ٣٣٤

(٣٢) **سمهود** : قرية تقع على ترعة بحوره . تتبع مركز فرشوط بمديرية قنا في ذلك الوقت .

(٣٣) **الرافعي** . تاريخ الحركة القومية . ص ٣٢٢

(٣٤) **الرافعي** . تاريخ الحركة القومية . ص ٣٢٨

(٣٥) **الرافعي** . تاريخ الحركة القومية . ص ٣٣٥

(٣٦) **هيرولد** . **بونابرت في مصر** . **ص ٣٤٨** .

(٣٧) **الرافعي** . تاريخ الحركة القومية . ص ٣٣٥ .

(٣٨) **نقلا عن** : الرافعي . تاريخ الحركة القومية . ص ٣٣١ .

(٣٩) **الجبرتي** . عجائب الآثار ص ٥٦ ـ مظهر التقديس . ص ١٣٦ .

(٤٠) **الجبرتي** . عجائب الآثار ص ٥٧ ـ مظهر التقديس . ص ١٣٨ .

(٤١) **هيرولد** . بونابرت في مصر . ص ٣٣٤ .

(٤٢) **الجبرتي** . عجائب الآثار . ص ٥٢ .

(٤٣) **الجبرتي** . عجائب الآثار . ص ٥٢

(٤٤) **الجبرتي** . عجائب الآثار . ص ٥٢

(٤٥) **هيرولد** . بونابرت في مصر . ص ٣٣٤

(٤٦) **الجبرتي** . عجائب الآثار ص ١٩٠ ـ مظهر التقديس . ص ٣٦٥

المراجع :

- **جورجي زيدان** .
« تاريخ مصر الحديث » . الجزء الثاني . مطبعة المقتطف . القاهرة ١٣٠٦ هـ ـ ١٨٨٩ .

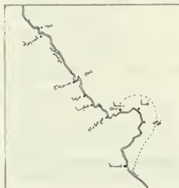
- **ج . كرستوفر هيرولد (ترجمة فوزي أندراوس)** .
« بونابرت في مصر » . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٧ م

- **عبد الرحمن الجبرتي** .
- « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . لجنة البيان العربي . الطبعة الأولى . القاهرة . ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .
- « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » الجزء الثالث . المطبعة الولافية . بدون تاريخ .

- عبد الرحمن الرافعي .
• تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر • . الجزء الأول . الطبعة الثالثة . مطبعة النهضة المصرية . القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ .
- محمود الشرقاوي .
• مصر في القرن الثامن عشر • . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٥٦ هـ
- مصطفى نبيل
• في اليمن اكتشفوا هذه الأسرار عن حملة نابليون على مصر • مقال - مجلة الهلال - القاهرة ، مارس ١٩٨٢ .



١ - خريطة توضح بعض الأماكن الهامة التي مر بها عرب الجزيرة ابتداء من الدعوة للجهاد حتى الوصول الى مصر



٢ - خريطة الوجه القبلي بمصر موضحا عليها المنطقة التي شهدت أعنف المعارك التي خاضها عرب الجزيرة